# الفستان المشؤوم

معصومة علي المطاوعة

# الفستان المشؤوم

قصص من الواقع

**الفستان المشؤوم**
**قصص من الواقع**
**معصومة المطاوعة**

**الطبعة الأولى**
**مملكة البحرين – 2004**

**جميع الحقوق محفوظة للمؤلف**

**رقم الإيداع بمكتب حماية حقوق المؤلف: 1035**
**رقم الإيداع في إدارة المكتبات العامة: 3625 د. ع./ 2003م**
**رقم الناشر الدولي: ISBN 99901-563-0-1**

**تصميم الغلاف: الفنان أنس الشيخ**
**الطباعة والتوزيع: مؤسسة الأيام للنشر**

# إهـداء

**من فوضى النهار..**

**من مكتب يختنق بالأوراق..**

**من فتحة في الجدار يهرب منها النمل..**

**إلى كل من خلّد أثرا في أحلامي..**

**إلى كل من اقتطع أرضا في ذاكرتي..**

**إلى كل من رآني جميلة..**

**أهدي هذا الفستان...**

# مقدمة

عندما يختلف رجل وامرأة..
عندما يتنازل الرجل عن رجولته..
عندما تفقد المرأة كبرياء عظمتها..
عندما يقتحم الفضول جدران البيوت..

عندما تخلع ريح الغرب كل أشجار الشرق.. تنمو أعشاب اليوم على رماد ذكريات الوقت.. فتتوقف عقارب الساعه ليتوقف عندها التفكير.. وتبدأ الملامات والعتابات حول اي السبل هو الصحيح.. ولو اختار كل شخص طريقه.. تبدأ الظروف بلعب لعبة الحاجة تبرّر الوسيلة.. وهناك يبدأ التصادم مع الذات أو الآخرين..

هذا الكتاب يرسم اختلاف الناس على أسلوب الحياة.. وتتباعد المحاور وتتصادم الأفكار بين الحب والكراهية.. الأمانة والخيانة.. الثقة والشك.. الاحترام والإذلال.. المشاركة والأنانية.. الألفة والنفاق.. الود والحقد.. العطاء والسلب.. العزة والانحطاط.. الطبيعة والشذوذ.. العقل والجنون.. الخير والشر.. الإنسانية والحيوانية..

هذا الكتاب..

حياة من مبادئ وقيم وعادات شرقية جميلة بدت تذوب مع حرارة شمس العصر والانفتاح..

حياة من مطالب كل امرأة بالحقوق الكاملة التي جاءت تحارب من أجلها منذ الأزل..

حياة من آهات كل أم تبخّر حليب صدرها مع جفاء ابنها لذاك الصدر..

حياة من آمال كل أب شاء لأسرته دنيا هادئة مستقرة..

حياة من ضحكات كل امرأة أودعت نفسها أمانة في قلب رجل باع الأمانة..

حياة من ذكريات كل رجل آمن بصدق شريكته وإخلاصها فخانته..

حياة من آلام شباب وجدوا في انفسهم طاقات ما تبنّتها فوضى الحياة..

حياة من صرخات أطفال يطالبون بروح طفولتهم التي قتلتها قسوة الظروف..

حياة من نظرات شخوص يتألمون ولكنهم لا يستطيعون التعبير عن ما يشعرون..

حياة من شوارع اقتحمها الفساد والشذوذ فحادت به عن الفطرة القويمة..

حياة من بيوت كستها شباك العنكبوت فاعتبرت ببيوتها فأفقدتها روح البيوت...

هذا الكتاب..

حياة من أرض حملت على تربتها ابناءً أوصتهم الحفاظ على جمال الأرض أمنا وإعماراً ومحبة.. فأحرق الأبناء شجر الأرض ولم يبق منها سوى بقايا رماد.. فهل تراهم الأبناء يجدون أنفسهم قائمين على الوصية؟!!

**المؤلفة**

حصل طلاق أبي وأمي منذ زمن طويل، كنت وقتها صغيرة، فعشت مع أمي منذ البداية، حيث لم تستمر في العيش دون أبي طويلاً حتى تزوجت غيره بسرعة، وجلبت لي ولأخوتي زوج أم! ولم يكن الرجل سيئا في طباعه عدا بعضها أو بالأصح أهمها!!

كنت وشقيقتي في تلك الفترة في سن المدرسة.. ولم تنجب أمي من زوجها ابناء، ولا أدري إن كانت قصدت ذلك أم لا.. المهم أن الرجل لم يحظ بابناء من أمي، لذلك لم تكن معاملته لنا سيئة، بل كانت علاقتنا به طبيعية جدا.

عندما تزوجته أمي.. كنا وبالأخص أنا نفهم الحياة جيداً.. فعندما يجلب الأب زوجة لأولاده لا مشكلة في أن تكون أما لهم.. لكن عندما تجلب الأم زوجاً لبناتها يكون الأمر مختلفا في أن يكون أباً لهن!

كان زوج أمي رجلاً غريب الأطوار.. لكن أمي علمتنا بأنه مثل والدنا، ربتنا على حبه واحترامه.. لكننا كنا نسميه "عمي" رغم كل محاولاتها، فكلمة "أبي" ليست بالسهلة كي يسمّى بها أي أحد.. أما "أبي" الحقيقي فلم نعرف عنه شيئاً منذ أن تركنا.. فهو الآخر تزوج بأخرى والتهى بحياة أخرى في مكان آخر، ولم يسأل كيف نحن يوماً.. خاصة وأن أمي كانت سعيدة بانقطاعه عنا..

مضت السنوات.. كانت فيها أمي وزوجها كثيرين الشجار.. لكن لا بأس.. حيث لم يكن ذلك يؤثر علينا كثيرا.. فرغم كل شيء كانت معاملته لنا جيدة.. ولأمي كذلك في معظم الأوقات..

كنت أكبر أخواتي الثلاث.. لذا كان من الطبيعي أن أبلغ قبل الجميع وأنضج قبلهم.. فلفت الأمر نظر زوج أمي.. فلاحظ أني أكثر جمالاً من أمي وأكثر شبابا.. صحيح أني لست جميلة جداً.. لكن على الأقل أنا أجمل من أمي ومن زوجها بكثير..

ما عاد زوج أمي أو "عمي" ينفق علينا كالسابق.. صحيح أنه لم يكن سخياً من قبل ولكنه لم يكن بخيلاً على الأقل!

كنت في تلك الفترة في المرحلة الاعدادية.. وكانت لي حاجات كثيرة لم يكن أحد يلبيها لي! فعندما كنت أسأل أمي المال كانت تطلب منّي أخذه من زوجها.. وهو عندما كنت أطلب منه لم يكن يعطيني شيئاً.. ولا أدري لماذا! والغريب أنه كان يشتري لأخواتي كل شيء يردنه، عداي أنا، ولم أعرف السبب!

لم تكن أمي مهتمة كثيراً بنا يوما.. لذلك لم تكن علاقتنا بها قوية.. فهي دائماً لديها أشغالها الخاصة خارج المنزل، فقد كانت كثيرة الخروج، فهي امرأة حرّة الفكر والرأي والعمل.. لا تفوتها حفلة أو دعوة أو زيارة.. فكانت دنيوية واجتماعية أكثر من اللازم.

بدأت أشعر النقص بشدة.. خاصة وأنا في عزّ مراهقتي.. كنت أرغب بالكثير مثل باقي الفتيات، أرغب في ملابس على صيحات الموضة، واكسسوارات كالتي تضعها صديقاتي، غير المكياج

والأحذية والشنط وإقامة الحفلات والعزائم وحضورها، وغير ذلك مما تنعم به الفتيات عداي.. لكن كيف السبيل لذلك؟!

لم أعرف السبب الذي يجعل زوج أمي يحرمني من النقود والهدايا.. حتى أصبحت محتارة في كيفية جلب المال! ويوماً وأنا أسأله المال قال لي: هل تشعرين بحاجة إلى الكثير من الأشياء؟! فاجبته: نعم.. فأنت وأمي مقصران معي.. وأنا بحاجة إلى الكثير.. فقال: أنا باستطاعتي اعطاءك كل ما ترغبين به.. بل وأكثر بكثير من الذي ترغبين به.. فهل تريدين ذلك! شعرت بالسعادة الكبيرة من كلامه فاجبته: نعم.. أريد .. أريد! فقال: وأنا أيضا أريد المقابل!

استغربت حديثه الذي بدا فيه بعض المكر فسألته: وما الذي تريده في المقابل يا عمي؟! فأجاب: المقابل أن لاتناديني يا عمي! قال ذلك وهو يضع يده على إحدى ركبتيّ.. اقشعر جسدي من كلامه وحركته، وفجأة شعرت بالخوف منه ومن نظراته فغادرت المجلس! بعدها تكرّرت مثل تلك التصرفات.

بدأ عمي أو زوج أمي بالأصح يعطيني المال والهدايا وينفق علي بسخاء غير طبيعي، وكنت سعيدة جداً بذلك، لكن الغريب أنه لا يعطيني الهدايا والنقود الا عندما لا يكون هناك أحد في المنزل، وخاصة أمي.. وعندما كنت أسأله السبب في ذلك كان يقول: حتى لا يطالبني الجميع بالمثل .. فهكذا أفضل!

تقبّلت الوضع وكنت سعيدة.. لكن عندما كنا نختلي كانت تحصل بعض الأمور الغريبة.. إذ لم تعد نظراته لي كالسابق.. بدأت

عيناه تبدوان مختلفتين كثيرا.. فهما لا تثبتان في مكان واحد.. وكثيرا ما ولا أدري لماذا كنت أرى جسدي عارياً من خلالهما.

مضت أسابيع على ذلك الوضع.. كنت أجلس فيها معه لساعات طويلة عندما يخلو المنزل من الجميع.. فكان دائماً يقول لي بأني مميزة عن الكل، وأنني الأجمل والأذكى، وأن مستقبلي سيكون زاهرا وغير ذلك من الحديث.. وغالباً ماكنا نجلس على مقربة كبيرة من بعضنا.. فيأخذ رأسي على صدره أحيانا، ويضم يدي بحنان ويلمس وجهي وشعري وغير ذلك.

في البداية أظهرت الاستنكار لكل ذلك.. لكنه كان يغضب ويثور عندما امتنع عنه فأبقي صامتة.. ولا سيما أنني كنت أشعر أحيانا بالحنان في ذلك! حتى جاء يوم..

وبينما نحن في مجلسنا المختلي كالعادة.. دخلت إلى غرفتي لآخذ حماماً دافئاً حيث كان الجو بردا آنذاك.. وعندما خرجت من الحمام كنت ألفّ جسدي بمنشفة عريضة لا يظهر منها غير ساقيّ ويديّ.. فوجدت زوج أمي داخل غرفتي.. ولم انتبه لوجوده إلا بعدما خرجت وأغلقت باب الحمام ورائي.. لكن ما إن رأيته حتى حاولت العودة إلى الحمام.. لكنه اقترب وأمسك بإحدى يديّ التي كنت أمسك بها الفوطة وقال: إلى أين؟! فأجبته: سأرتدي ملابسي، فقال: لاداعي لذلك! فما من أحد غريب لتستحي منه!

ولا أدري كيف أو لماذا حصل ما حصل.. والأكثر من ذلك أنه تكرّر..

في البداية اعترضت كثيرا وقاومت تكرار مثل ذلك الشيء.. لكن زوج أمي كان يهدّدني بقطع المال عني.. فمع كل جلسة أجلسها معه كان يعطني في المقابل مبلغاً جيداً من المال.. والأمرّ من ذلك عندما أذهب اليه محتاجة المال، فكان يقول لي: أولا عليك الدفع!.. واستمر الأمر كذلك.

اعتدت على الأمر.. صحيح في البداية لم أرد الأمر.. وبكيت وعارضت.. في المرة الاولى عندما اعتدى عليّ.. لم اتخيل ذلك الأمر بتاتا.. كيف يفعل بي ذلك وأنا التي ربيت أمام عينيه كابنته.. عندما ارتمى بجسده عليّ.. كنت أصرخ باكية: عمي لا.. لا يا عمي! لكنه كان أقوى وأضخم من أن أتمكن من صدّه وابعاده.. لكن بعدها رضخت.. فمتى ما احتجت المال ذهبت إليه بنفسي لأسلّم واستلم.

لم يعرف أحد بالأمر.. في البداية فكّرت بإخبار أمي عما فعله بي لكنني لم استطع.. أذكر أن الجميع سألني في المرة الأولى عن ما بي حيث بكيت طوال ذلك اليوم ولم أأكل شيئا.. لكني راجعت نفسي فأدركت بأن لا فائدة من الحديث.. فكل ما سيحصل هو طلاق أمي وزوجها وتشرّدنا من جديد.. فهذا الزوج تقبّل وجودنا في حياة امي.. لكن رجل آخراً قد لا يتقبّل.. ولربما لا تصدقني أمي إن أنكر زوجها ذلك.. فأصبح مذمومة من الجميع وتسوء معاملة الاثنين لي.. وقد يصرّ بعدها زوجها على إخراجي من المنزل.. وأنا لا أريد العيش مع أبي لأنه الآخر لا يريد.. لكل ذلك فضّلت السكوت.

ومضى الوقت وأنا على نفس تلك الحال.. لكن كانت هناك مشكلة.. فلم يكن زوج أمي يسمح لي بالزواج حتى لا يخسرني.. فكلما يتقدم شخص لخطبتي كان يثبت لأمي بأنه غير مناسب ويلفّق عليه الأقاويل والعيوب فتصدّقه أمي وترفضه.. وهكذا مضت حوالى ثلاث سنوات.. حيث تزوجت أختي التي تصغرني مباشرة وخرجت من المنزل.. وبقيت أنا أشعر الألم والحسرة والحزن.. وتمنيت الأخرى الخروج من كل ذلك لكن كيف!؟

في آخر مرة تقدم فيها شاب لخطبتي أصررت على زواجه.. حاولت كثيرا إقناع أمي فلم أعد صغيرة في العمر.. وأصبحت بحاجة إلى رجل يؤدي مطالبي.. والذي نفعني في الموضوع أن أمي بدأت تشك في زوجها الذي لم يعترض أبدا على زواج أختي، ولم يسأل عن زوجها، بينما يسأل دائما عن كل من يتقدّم لي ويعارض زواجهم.. فوافقت بذلك على زواجي.

خطبني رجل عظيم.. كان طيبا محترما ومن عائلة عريقة.. أحبّني كثيرا وملأ حياتي سعادة في فترة الخطوبة التي لم تتجاوز بعض الشهور.. والتي خطّطنا فيها لحياة سعيدة جميلة حسبت أنها نهاية التعاسة والشقاء.. وبداية الحب والطمأنينة.. لكنه طلّقني في اليوم الثاني من الزواج.. وكنت أعلم الأسباب.

بكيت ليلتها.. توسّلته أن يصدقني.. كنت مجبورة.. لم يكن لي ذنب في ما حصل معي.. كنت ضحية.. لكنه لم يسمعني وتركني في منزله في المساء.. وأعادني صباحاً إلى منزل والدتي من جديد..

والتي لم تصر كثيرا على معرفة سبب الخلاف.. ولم تحاول ملياً اصلاح الوضع.. فهكذا هي دائما.. نادراً ما تهتم لما يخصنا.. أعلمتها بأننا اتفقنا على الطلاق.. وأنني شعرت فجأة بأنني لا أريده.. فصدقت.

بعدها شغلت وظيفة لأتسلى بها وأصرف منها على نفسي.. حيث لم يكن زوج أمي مهتما بي بعد ذلك.. فكنت أقضي معظم الوقت خارج المنزل.. فلا أعود إلا في وقت متأخر من الليل.. وأحيانا أيضا لا أعود.. فما كرهت فعله مع عمي.. ورغبت بفعله مع خطيبي.. تعودت على فعله مع آخرين.. وبثمن جيد.. أصبحت واحدة من نساء الليل.. هكذا تحولت حياتي إلى ما أنا عليه.. وإن كان الناس لا يهمهم إلا ما أنا اليوم عليه.. فأنا أقول لهم جميعا بأني تعذبت كثيرا.. ولم يعد يهمني شيء..

لكن المشكلة اليوم ليست أنا.. فأنا واحدة من ثلاثة.. صحيح أن الثانية تزوجت ورحلت من المنزل.. لكن لا تزال في المنزل واحدة.. والمشكلة هناك.. حيث هي الأخرى نضجت في المنزل.. ولربما في أي لحظة سيأتي عليها الدور!!

# الفستان المشؤوم

ليلة.. من ألف ليلة.. وليلة..

ولدت في بيت متوسط المادة لكن جيد الخلق، كانت وحيدة والديها لكن عزيزتهما، حيث لم يرزق الوالدان بغيرها بعد سنوات طويلة من الانتظار، ولما رزقوا بها كانت تعاني من مرض مزمن لم يتمكن الأطباء من علاجه مع أنهم عرفوه باكرا.

نمت الطفلة، ومع نموها، نما معها جمال آلهي عظيم، وكأن تلك الصحة التي حرمت منها، قد تعوّضت بجمال وحسن واضح عليها رغم صغر سنها، فتلك الملامح الجميلة، والابتسامات البريئة، والضحكات العذبة، كانت تزيد كل من يراها حبا وتعلقا بها، وأسفا وحزنا عليها.

ومضت السنوات، وزاد معها مرض الفتاة، وزاد ألمها ومعاناتها، لكنها ظلت رغم كل ذلك، وردة متفتحة زاهية دائما، فحتى عندما كانت ترقد في المستشفى نتيجة نوبة معينة، كانت تضحك وتبتسم في وجه كل زائريها متجاهلة ذلك الألم، تنظر للجميع بتفاؤل، سعيدة تشير لاقتناعها وايمانها بحالها، مما يجعلها قوّية متماسكة، ويزيد والديها فخرا بها، ويخفف عليهما عذاب ألمها.

ومع مرور السنوات كبرت الفتاة، وأصبحت شابة يافعة جميلة، فبرزت ملامحها وامتلأ جسدها الصغير، واستتار جلدها المورّد، ومع

كل ذلك الجمال الذي وهبها إيّاه تعالى، كانت على درجة عالية من الذكاء والحكمة، وحسن الخلق ولطف المعاملة، أحبّت الناس كثيراً وأحبّوها أكثر، لكن ذلك المرض ظلّ يفتك بها، يأكلها من الداخل كلّما كبرت، فيزيد عذابها وألمها.

لكنها رغم كل ذلك، مارست حياتها الطبيعية بشكل تام، أكملت دراستها، بل تفوقت بها، وكانت لها علاقاتها الاجتماعية وصداقاتها، كما أنها لم تقصّر يوما في أداء واجباتها الدينية على أكمل وجه وكذلك الأسريّة.

وشاءت الأقدار، أن تتعرّف الفتاة على شاب عظيم، كان قد رآها في المستشفى مرّة عندما كانت تتلقّى العلاج، سأل عنها الشاب بعدما شعر بأنه أحبها من أول نظرة، وعرف بانها مصابة بمرض مزمن، لكنه بالإضافة لذلك أيضا عرف عن حسن خلقها، وجمال تعاملها، ومدى التزامها وصدقها، فزاده ذلك تمسكا بها.

عرف أنها وحيدة والديها، وأن ظروفهما ليست جيدة جدا، وهو جيد المادة، فزاده ذلك تعلّقا بها لمساعدتها.. خاصة وأن الجمال العظيم والابتسامة المشرقة والروح الشفافة التي لمسها في الفتاة جعلته يفكر فعلا بالتقدّم لخطبتها، رغم أنها تفتقر إلى أغلى ما في الحياة.. صحتها، ألا أنها تملك ما يعوض ذلك ويكفي المرء ليحيا معها حياة هانئة سعيدة.

وافق أهل الفتاة على الشاب، فقد عرفوا عنه الكثير من طيب خلقه، وحسن عمله، ونجاح مستقبله، والتزامه بدينه، فوافق الجميع

عليه، بما فيهم الفتاة التي شعرت بسعادة عظيمة لا توصف، فهي لم تتوقع أن يتقدّم أحد يوما لخطبتها وهي على هذه الحال، ألا أن الله أعطاها شابا من أجمل الشباب وأحسنهم خلقا، مما زادها رضا بحالها وايمانا بعدل الله.

تمت الخطوبة، ولم يخب ظن الفتاة وأهلها بالشاب، الذي ملأ حياتهم أملا وسعادة، واهتم بمصاريف علاج الفتاة في أحسن المستشفيات في البلاد وخارجها، غير ذلك تشجيعه الدائم لها بالصبر والصمود.. مما جعلها أقوى عزيمة وأكثر ايمانا، خاصة وأن تلك الفترة من حياتها كانت فترة الإعداد للمستقبل المجهول، الذي أصبحت تأمل فيه ببيتاً صغيراً تملأه أولادا مثلها كأي فتاة.

ومرّت الأشهر بسرعة، وبدأت استعدادات الزواج، وكانت تلك اللحظات تمر بطيئة، وكلاهما تغمره سعادة عظيمة، لاقتراب موعد تحقيق الحلم الأعظم، وهو بيت الزوجية، وخاصة الفتاة التي لم تكف لوهلة عن شكر الله على ما يسّره لها، وعلى ما أعطاها من حب ذلك الشاب وعظمته.

جهز فستان العرس، وذهبت الفتاة وخطيبها لاستلامه من الخياط، فارتدته لتجرّبه، بدت فيه كملاك طاهر، انعكس بياض الفستان على وجهها فزاده نورا وصفاء، فازدادت سعادة خطيبها، الذي وعدها بأن تكون أجمل عروس في الدنيا، وبأن يكون حفل زفافهما كليلة من ليال ألف ليلة وليلة.

تركت الفتاة الفستان لدى الخياط ليقوم ببعض التعديلات البسيطة

عليه، وبما أن موعد الزفاف كان قد اقترب، أخبرها الخياط بصعوبة استلامه قبل يوم العرس نفسه، فوافق الاثنان على ذلك.

جاء صباح يوم العرس، وكانت الفتاة ساهرة حتى الصباح، إذ لم تتمكن من إغماض جفنها طوال الليل، وهي تحلم بتلك السعادة العظيمة التي تنتظرها بعد ساعات معدودة، وذلك العالم الجديد الذي هي مقبلة عليه مع انسان تكن له الحب والاحترام.

ومضت الساعات بسرعة يومها، وجميع الأهل والاصدقاء يعدّون انفسهم لهذه الليلة، والعروسان تغمرهما السعادة العظيمة ويغلبهما التوتر.

اقترب موعد الحفلة، وكان الجميع يلتف حول العروس لتجهيزها، بينما انطلق خطيبها لإحضار فستان العرس، خرج والأحلام تداعبه، انطلق بسرعة والسعادة تغمره، وفرحة اللقاء تكاد تقتله.. حتى فعلت..

انزلقت سيارته من سرعته عن مسارها واصطدمت بالرصيف، وانقلبت مرات عديدة حتى وقفت.. وشاءت الأقدار أن تصل روحه إلى بارئه قبل وصوله إلى المستشفى..

وهناك عند الخياط، صاح جرس الهاتف أكثر من مرّة يسأل عن العريس، بينما يجيب الخياط بأنه لم يصل بعد، فلقد تأخر كثيرا عن موعد استلام الفستان، لكن تلك المكالمات التي وصلت للخياط لم تكن لتسأل لماذا تأخّر العريس عن جلب الفستان، بل لتعلمه بأن يترك الفستان وشأنه ويأتي بسرعة، فلقد أصيبت العروس بنوبة، نوبة مختلفة عن النوباتان السابقة، نوبة حادة قوية نقلت على أثرها بسرعة

إلى المستشفى تاركة موكب العرس، وكأن الله تعالى لم يشأ لها أن تتعذب أكثر، ولا أن تبكي فراق حبيبها، وما إن وصل خبر وفاة الشاب الى أهل العروسين، إلا وكانت العروس قد فارقت الحياة في المستشفى.

وتحولت ليلة من ألف ليلة إلى مأتم علت فيه أصوات النساء الباكيات، ونحيب الأهل والأصدقاء، وأهل هلال ليل طويل من الألم والحزن حلّ على المدينة كلها، والتي ردّدت قصة العروسين، وستبقى تردّدها مهما طال الزمن، بينما ظل الفستان معلّقا عند الخياط..

# سجين الماضي

وفجأة بدأت تتنفّس بصعوبة وتسعل بهدوء، فقلت في نفسي "والله لن تثكلك أمك يا صغيرة!"

"ليس كل جميل محبوب، لكن كل محبوب جميل"..

سمعت هذه المقولة من قبل، فأنا شاعر وكاتب، وتتردّد عليّ الكثير من مثل هذه المقولات وغيرها من الكلمات والجمل، والفلسفات والحكم، إلخ..

قلمي هو علّتي الأولى، وفكري هو العلة الأخرى، وفي النهاية وبعد عمل شاق طوال اليوم، أعود لغرفتي، فمكتبي.. فعلّتيّ هاتان تهيّئاني نتاجًا أدبيًا مثمرا، وأحفظه بين صفحات دفتري لحين قريب..

وفي صدر الحديث عن الجمال نعلم بأن الله جميلٌ يحب الجمال، لكن الجمال المقصود هنا هو جمال النفس والروح لا الشكل أو الجسد، ولعل البعض يغفل عن أمور هكذا ، والبعض يتغافل عنها..

ولمثل هؤلاء الغافلين أو المتغافلين في دفتر مذكراتي قصة، أعود إليها من حين لحين، متى أردت لنفسي بعض السكون، ولفكري بعض التأمل في ملكوت هذه الأرضين..

فبعد حوالي خمسين صفحة من دفتر مذكراتي، تأتي صفحات يعلوها عنوان كتبت فيها قصة حياتي، وتبدأ...

اليوم وبعد أن أنهيت السادسة والعشرين من العمر، ترى هل آن الأوان لأكشف لهذا العالم أفكاري المتعبة من السباحة في ملكوت هذا

الكون الفسيح، وأقطف ثماري الأدبية وها قد نضجت وفات موعد قطفها من سنين، وأروي الأرض بفلسفات فكري بعد أن أصبح سيلها مشابها بجداول تجري..

أترى هل أرفع ظلمي عن كلماتي التي طال حبسي لها في صفحات دفاتري، وهل أفك أسر أبيات شعري كي تخرج لهذا العالم فتنشر أريجها الذي يكاد ينجلي متصادماً بين أخشاب درج مكتبي.. لا أدري!

فلا يعلم أحد بحبي للكتابة، ولا عن إبداعي في التأليف، إذ أبقيت موهبتي هذه سراً حتى اليوم، لا يعلم بها أحد حتى خطيبتي، فخطيبتي الأخرى من محبّات الكتابة والشعر، وإن كانت لا تجيدها، ولو أنها علمت يوماً بأني ماهر بها لزاد حبها لي عظمة وشوقها لى احتراقاً، لتسمع أبيات شعري.. لكني لأكشف لها هذا السر احتاج من الوقت المزيد..

أعمل وخطيبتي في شركة تجاريّة، حيث عرفتها فيها، وأحببتها وأحبّتني، وأقسمنا معاً على ريّ هذا الحب بالشوق والحنين، حتى تلاقي أجسادنا إلى قبرها سبيلاً.

هكذا كنا نقطع الكثير من الوعود، وعلى ذاك النهج الكثير من العهود، على صفحات أوراق على البحر وبين الورد، وبعد سنوات لا ظل حبر ولا عود، ويا قلبي لا أنس لك غير الصمود..

لم تكن خطيبتي تعلم بموهبتي كي تحبني فيها، لكنها كانت تحب بي أمراً آخر، وهو وسامة وجهي ورشاقة بدني، إذ وهبني الله جمالاً

فاتناً، فصاغ وجهي فأحسن صياغته، ونصب قامتي فأعظم نصبها، وعيني ملأها سحراً.. وياله من سحر..

هكذا كانت حالي، ولذلك كانت الكثير من الفتيات ذوات القلوب المريضة يتقربن مني، مفتونات بسحري وجمالي، ولعل خطيبتي كانت واحدة منهن، ولم أكن أدري.. لكن الأيام أثبتت لي ذلك..

عدت إلى داري يوماً بعد انتهاء الدوام، وبينما أنا في اقتراب من منزلي، وجدت بعض الأدخنة تتطاير من نافذة إحدى الغرف في المنزل، فقلت لنفسي: يا إلهي، هناك حريق شب في المنزل! أسرعت ودخلت المنزل، وتوجّهت إلى الطابق العلوي حيث كان الحريق، اتّجهت إلى الغرفة وكانت غرفة أخوتي الصغار، حاولت فتح بابها لكن ما استطعت، صرخت بقوة: "أحمد ، ياسر، هل أحدكما في الداخل؟"، فسمعت تباكياً وصوت بعض السعال، حاولت كسر الباب فما استطعت، انتابني التوتر، فبدأت أصرخ منادياً أبي وأمي وأخوتي، لكن ما كان في البيت غير أمي التي كانت راقدة في غرفة في الطابق الأرضي..

سمع الجيران النداء، فاتصلوا بالأطفاء والإسعاف، وهمّ بعض الرجال للمساعدة، تمكنّا من كسر الباب، وقربه وجدت أحمد وياسر ملوّنين بالأدخنة، لا يكاد أحدهما يشهق نفسة حتى يسرقها الآخر من شدّة الاختناق، فضممتهما مقبّلاً إياهما، وهما يبكيان خوفا ورهبة، ثم قال أحمد وهو الأكبر وفي السابعة من العمر: "أمل!" فسألته وأنا ممسك بذراعه أكاد أعصرها: "أين أمل؟" وهي أختي الصغرى وفي

الثالثة من العمر، فأجاب مشيراً إلى داخل الغرفة، والتي لا يكاد يُرى منها غير ألسنة من النيران الحمراء والصفراء..

اقتربت من الباب لأرمي بنفسي في النار فمنعني الرجال من ذلك، إذ كان من المستحيل الدخول إلى فوهة بركان والخروج بروحين تدب فيهما الحياة! فبدأت أصرخ أمل، أمل، فسمعت همساً كأنه تغاريد عصافير الصباح قائل: أخي، أناهنا! ومن نبرة صوتها أحسستها بخير، لكن الإطفاء كان قد تأخّر فلم أستطع أن أتمالك نفسي فخلعت ملابسي ورميت بنفسي في الغرفة، فقد كان وسطها بخير تقريباً!

التفت حولي أبحث عنها، فوجدتها جالسة في زاوية صغيرة تخلو من اللهب، والنار حولها وقد التهمت السجاد والستائر المحيطة، قفزت قربها في دائرتها وحملتها وعدت من جديد إلى دائرتي في الوسط، لكن الدائرة في وسط الغرفة أضحت ضيقة، فقد تساقطت اللوحات المعلقة كالجمر، وكان السجاد أسفلي يحترق..

بادر الرجال في الخارج بالإطفاء بالماء والتراب والضرب ببعض الخرق، لكن لا فائدة، فلم أكن قادراً حتى على فتح عيني من شدّة الحريق، والصغيرة تبكي خوفاً ورهبة، وفجأة بدأت تتنفّس بصعوبة وتسعل بهدوء، فقلت في نفسي "والله لن تتكلك أمك يا صغيرة!" فتشدّدت في قلبي بأن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وخطوت خطوة واسعة في النيران مقترباً من الباب، ورميت بالطفلة خارجاً قائلاً: "الله أكبر"، فخرجت ككرة من النار فالتقطها الرجال، وتعثّرت أنا بين الأثاث المحترق، أتلوّى بين ألسنة اللهب، وتكرّمت

النيران بدخانها عليّ فاختنقت وسقطت مكاني..

هذا ما حدث والعلم عند الله، فقد كان كل شيء غريباً، ومدبّراً بحكمة الله التي لا حكمة فوقها، فتلك إرادته التي سوّت الأسباب، وأحكمت الظروف حتى تأخذ الأمور ذلك المجرى.

ذهب الأطفال الثلاثة إلى الغرفة وأقفلوا الباب عليهم، وبدأوا يلعبون بالشموع ويزيّنون الغرفة والأثاث بها، فلامست النار أسلاك المكيف فأنفجر، فأحرق الغرفة بأثاثها وسجّادها.. هذا أوضح تفسير لما حصل..

وشاء الله في تلك العصرية أن تتصاعد الأدخنة من نافذة الغرفة في الأعلى، ولا يشمّها أو يراها أحد الجيران أو المارة رغم امتلاء الحي من الأحياء، وأصل أنا يومها باكراً عن عادتي لأنقذ الأطفال، ويتأخّر رجال الإطفاء فلا أجد منقذي.. لأتحوّل من فلان الشاب الجميل، والعين الساحرة، إلى مجرّد مسخ كان الأجدر به أن لا يعيش.. خرجت من المستشفى إلى المنزل، وفي قلبي ألم عظيم وتساؤلات كثيرة عن كيفية تقبّل هذا الواقع الجديد.

ملأت الحروق البسيطة الجانب الأيمن من جسمي، بينما وجهي كان محترقاً تماماً لدرجة أنه يصعب التعرف على شخصي من وجهي الجديد.

بقيت في المنزل لأيام طويلة وحدي في غرفتي، لم أشأ رؤية أحد حتى خطيبتي، فقد كنت أسأل نفسي حينها "إن كنت أنا بنفسي لا أستطيع رؤية وجهي في المرآة، فكيف لها هي أن ترى وجهي على

الواقع! وكذلك أهلي وأصدقائي؟!

كانت أمي وحدها من سمحت لها بزيارتي، فكانت تسقيني وتطعمني، سائلة إيّاي تقبّل قضاء الله وإرادته.

وبعد حوالي شهر، وبعد إصرار عظيم من خطيبتي وأهلي والجميع على خروجي من غرفتي لمواصلة مسيري في الحياة، خرجت من الغرفة.

وأذكر تماماً كيف كانت خطيبتي تحادثني دائماً في الهاتف، وتقوّي إيماني وتصبّرني، وتردّد بأّن لا شيء يستطيع تفريقنا، وأن حبنا أكبر من بعض الملامح الجميلة التي أخفاها القدر الرهيب، لكنها كانت تجهل معنى الكلام الذي تقوله، لأنها لم تكن تعلم بأن كلامها أجمل بكثير من وجهي الجديد.

وفي اليوم الذي خرجت فيه، لم أعلم أحد بذلك، وتوجّهت أولاً إلى الشركة حيث استقبلني الجميع بالترحيب والتصبير على ما هو الآن، وبعضهم بالدموع والتحسّر على ما قد فات من حسن بليغ.

توجّهت وأنا أجر قدماً فالأخرى إلى مكتب خطيبتي، حيث كانت منكبّة على أوراق بمكتبها، فقلت وبهدوء "مرحباً"، فميّزت صوتي، ورفعت رأسها بهدوء، وما إن وقعت عينها على وجهي حتى صرخت صرخة هزّت بدويها أرجاء المكتب، فالتمّ الجميع حولها وهي تبكي وتصرخ وتردّد: "اخرج، اخرج من هنا أرجوك لا أريد رؤيتك، اخرج، أرجوك اخرج.." فخرجت ولم أدخل ذلك المكان مرة أخرى.

عدت إلى المنزل، وانتحيت زاوية من داري، وأخفيت رأسي ووجهي

المشوّه بين يديّ وقدمي، وبدأت أبكي بكاء الطفل الحديث، لأني فعلاً أبدأ حياة حديثة ما اعتدت على لمساتها من قبل، وأنفاسها من قبل، أبكي وأقول يارب لم كتب عليّ هذا البلاء العظيم.

وتراودت لمخيلتي بعض الأفكار، وأحسست بالشفقة على نفسي وبالغباء، تذكّرت كيف أني خرجت من المنزل، كلّي شوق لرد فعلها هي بالذات، شقيقة الروح، والحب العظيم، غبي اعتقدت بأنها ما إن تراني حتى تحتضنني باكية مبتسمة، تخفّف جرحي فأمسح دمعها، تواسي قلبي، فأصبر بحبها، ونبدأ عهوداً جديدة بعد تغيّر مواقع بعض الفواصل في أحلامنا القديمة، لكن ياللأسف ما كان شئ من ذلك، فكيف لها أن تمسح دمعة تجري على جلدٍ عفن قد يلوّث بنانها، فكل الأمر كان مجرّد هراء وعبث، ما كان الحب حباً، ولا الوعد وعداً، ولا الرباط قوياً كما كانت تقول، فافترقنا لأنه ما ربطتنا يوماً غير أوتار عودٍ قطّعها عازفها لأنه ما كان بماهر.. تخلّت عنّي، طلبت الطلاق، وانتهت قصتنا كأي قصة من قصص ألف ليلة وليلة التي تنتهي بطلوع الصباح.

بحثت عن وظيفة أخرى فوجدتها بصعوبة، وبراتب ومركز أقل بكثير من السابق، في البداية تقبّل الحياة الجديدة كان أمراً بغاية الصعوبة، لكن سرعان ما انزاحت تلك الصعوبة يوماً تلو يوم، حتى تقبّلت الأمر والشخص والوجه الجديد.

كان كل زملائي وزميلاتي في العمل يكنّون لي الأحترام والتقدير، وإن كان بعضهم ينظر إليّ بمنظار الشفقة الذي أكرهه، وفي وسط

أولئك وجدت امرأة بمعنى الامرأة، كانت تقدّرني وتحترمني كثيراً، وكنت الآخر أكن لها الاحترام والتقدير ولربما الحب!

وقلت لنفسي.. في السابق كنت أعتقد بأن الإنسان يحب مرة واحدة في حياته، ويالللأسف لقد أحببت مرّة وأخفقت في الاختيار، فبذلك فاتني قطار الحب، لكن وبحمد الله ها هو قلبي يخفق من جديد، ويبدو أن محطة لا تزال في الطريق..

بدأت صورتها تتقلّب في مخيلتي من وقت لآخر، فقد كنت بعد حادثة التشوه أولاً، وتخلّي الحبيبة ثانياً محتاج لحنان كبير لمواصلة سيري في الحياة، كنت بحاجة ليد عظيمة أتوكّأ عليها لأسير، وإن كنت من الخارج أبدو قوياً كالسابق، ألا أني من الداخل كنت أنتهي.

فكّرت كثيراً بمصارحتها بحبي، لكني لم أجرؤ بذلك الشكل القبيح أن أفعل فبقيت صامتاً، ومع الوقت وجدت أنيساً آخر يبعدني قليلاً عن التفكير بحالي المرير.. إنه قلمي! فقلت في نفسي.. قد حان الوقت يا فلان كي تُظهر لهذا العالم فنك وإبداعك، حان الوقت بل إنه الوقت المناسب لتثبت للعالم بأنك شيء أكبر من مسخ مثير للشفقة، قد تخلّى أحباؤك عنك من قبل لزوال جمالك، لكنهم سيجتمعون حولك من جديد لجمال حسّك، وكان الله سميعاً مجيباً.

كتبت، فتحت درجي، وصفحات دفاتري، أخرجت نتاجي الأدبي، شعري، كتاباتي، أخرجت موهبتي للعالم، في كل صفحة من جريدة من مجلة وحتى في النشرات كتبت، تفرّغت كثيراً للأمر، وضعت حسّي وألمي، معاناتي وكفاحي كل شيء، صببت الواقع على

الأوراق، نقشت الحياة في كلمات، زخرفت الضحكة بالأقلام، ونقشت الكتب بالدموع.. حتى وصلت.. نعم وصلت..

أُشير إليّ بالبنان، تكلّم الناس عنّي، كثر المعجبين، وصلت الرسائل والمكالمات باسم الأديب والكاتب والشاعر، فحصلت على المركز والنقود لكني لم أكشف لهم عن اسمي أو وجهي أو واقعي الأليم.. وبدأ الكل يتساءل.. من هو؟.. لكني لم أشأ أن أجيب.

ومضت الأيام والشهور فالسنون، وجمعت المال وجاءت الفرصة لأسافر إلى الخارج لإجراء عملية تجميل، للتخلّص من هذا القناع الكريه.

ودّعت الجميع، ومن بينهم تلك الروح الصادقة وشجرة السلام والمحطة الأخيرة التي أرجو ألا يفوتني هذه المرة عندها القطار، ودّعتُ تلك المرأة التي تتراقص في مخيلتي، وقلت لها: "يا فلانه، إن عدت بشكل أجمل بقليل من شكلي الحالي، وملامح أوضح بقليل من ملامحي البالية لاعتبرت لنفسي الحق في أن أفاتحك بما أريد"، فقالت: "لك الحق يا فلان أن تقول ما تشاء حتى بشكلك الحالي وملامحك الحاضرة، فوالله ما حرم الله من أمرءٍ حقاً أعطاه لآخر لاختلافٍ في حسنه، فتلك الحقوق يعطيها الله لعباده قبل أن يشكّل صورهم، ومن أنا يا فلان حتى أحرمك حقاً أعطاه الله إياك؟" سافرت وكلّي أمل أن يكون كلامها أصدق بكثير من كلام كانت قد قالته أخرى وما صدقت..

أجريت العملية، وبحمد الله عدت بشكل يستطيع به قبولي قلب

امـرأة.. فأقمنـا بـدل الحفلـة الواحـدة، حفلتـين الأولـى لنجـاح العمليّـة ولزفافي الثانية.. واستمررت في كتاباتي..

مع الوقت كانت تتراود لمخيلتي فكرة إظهار وجهي للعالم، إذ كثر المطالبون به.. ومن بين المطالبين كانت امرأة تكثر في رسائلها من مديحي، ورغبتها في رؤية شكلي ومعرفة شخصي، فقد كانت بأفكاري متعلّقة وبأشعاري مجنونة، وبكلماتي ترتوي، حتى وصلتني منها بعض المكالمات حتى العنوان، فرقم الهاتف..

كانت تترجّى منّي مكالمة أو رسالة، لم أكلمها يوماً لكنّي كنت أرد أحياناً على رسائلها المعجبة بالشكر والتقدير، واستمر الأمر على ذلك طويلاً، فقد كانت الأكثر اصرارا على رؤيتي ومحادثتي من قريب.

ومع مرور الأشهر كتبت لي في إحدى رسالاتها بأنها لم تعد قادرة علـى التصـبّر، ومـع بعـض الكلمـات الأخـرى شـرحت لـي كيـف أنهـا تعـاني من الحب لمجهول، وهكذا وصلتني الكثير من الرسائل منها تبدأ بكلمـة "أحبك" وتنتهـي بجملـة "متـى أراك؟" حتـى صدّقتها وقرّرت أخيراً أن أكشف لها وللعالم عن ملامحي.

وفـي حفلـة أقمتهـا لاسـتقبال جمهـوري ومعجبـيّ، أعلنـت للعـالم الصـحفي والكتـابي عـن وجهـي، وتركـت أمـر اسـمي لآخـر الحفلـة، وكانت من أول الحاضرين وأقربهم من وجهي وأقلّهم تمييزاً لـه، ومن وسط الحفلة لم تتأخر لحظة لمحادثتي من قريب، فاقتربت قائلة: هل عرفتني؟، فقلت لها: وكيف لا أعرفك، وهل تخفى عيون المحبين؟، فقالت: هل صدّقت بأنّي أحبك، فقلت: نعم، كعادتي إذ كنت دوماً

أصدقك، لكني قبلاً صدّقتك وكنت كاذبة فكنت أنا من خسر، لكني اليوم أصدقك وأنت صادقة فتكونين أنت من يخسر، فشاء الله اليوم وبعد كل العذاب والحنين أن يحترق قلبك كما حرقتي قلبي من قبل، فخالق هذه السماء والارض إله عادل قد يتأخر عدله، لكنه لا يتبخّر، فهو يمهل ولا يهمل...

تلك آخر جملة من صفحات قصتي تلك.. وبعد أن أغلق دفتر مذكراتي، وبعد كل تلك السنين، أمسي فأقول "الحمد لله رب العالمين".

# بعد فوات الأوان

عن إذنك سيدي.. لقد نسيت أوراقاً مهمة سأجلبها في دقائق.. خذ راحتك فالبيت بيتك!

نتساءل أحياناً.. كيف تتغلّب الرغبات والأطماع على المروءة والشهامة.. فيترعرع في مجتمعاتنا رجال لا يمتّون للرجولة بصلة.. وحولهن نساء يتوارين عن الضياع.. فمنهن من تضل طريقها ومنهن من تبقى على هداها..

كان رجلاً طموحاً، بل طموحا جداً.. فالنجاح والمستقبل كانا المرآة التي يرى من خلالها الوصول لحياة كريمة أفضل، أفضل من حيث المستوى المادي والاجتماعي فقط، فعند المادة فقط تنحصر الكرامة والعزّة، ويتوّجها المركز الاجتماعي لتلفت أنظار الناس حول القمة، قمة مزيفة مبهرجة بالاصطناع والتلفيق.

كان مهندساً كبيرا، يشغل منصباً محترماً في شركة كبيرة، لكنه كان يطمع في المزيد، كان رئيساً على عدّة أقسام، لكنه لا يزال مرؤوساً من مدير واحد!

كان يفكر جاهداً في كيفية الوصول إلى ذلك المركز، إلى مركز الرئيس، فلا يبقى من يرأسه أو يصدر عليه الأوامر!! هكذا كان دائماً يفكّر.. فهو شخصية قوية، ورغبة طامعة طامحة للأفضل!

كان رئيسه أجنبي الجنسية، عظيم الثراء، قليل التدَّين، جزيل العطاء.. ففكّر الرجل جاهداً في كيفية الوصول إلى منصبه، أو ما

يقارب ذلك المنصب، فيساويه على الأقل في المستوى إن لم يَزِد عليه.. حتى خطرت للرجل فكرة!

فكّر الرجل بالتقرّب من رئيسه وحياته الاجتماعية أكثر، فدعاه يوماً إلى منزله، حيث يقيم هو وزوجته وحدهما في منزل جميل، فعرّف الرجل رئيسه على زوجته، وجلس الثلاثة يتبادلون الحديث والشراب، ولم يتردّد الرجل بإحضار شراب رئيسه إلى منزله، لا وبل تركه يسكر قدر ما شاء، ووسط كل ذلك قام الرجل من مكانه قائلاً: "عن إذنك سيدي.. لقد نسيت أوراقاً مهمة في السيارة سأجلبها في دقائق.. خذ راحتك فالبيت بيتك!"

تحرّك الرجل من مكانه فلحقته زوجته قائلة: "إلى أين؟! كيف ستتركني مع هذا السكران وحدي؟!"، فأجابها زوجها: "لا عليك.. ابقي معه وسأعود بسرعة!"

خرج الرجل وأغلق باب منزله خلفه، تاركاً عرضه بيد أجنبي سكّير.. والأمرُّ في الموقف أنه تأخّر في جلب الأوراق كما زعم!

في تلك الفترة تبادل رئيسه الحديث مع زوجته التي بدا عليها الخوف والاستنكار والحرج، خاصة وأن الرجل بدأ يسألها عن أمور خاصة.. مثل "كم عمرك؟" "أتعلمين بأنك جميلة!" وبدت عيناه الغائرتان من شدّة السكر تتفقد المرأة، تفصِّل ملامحها، ترسم جسدها، حتى دخل الزوج قائلاً: "آسف على التأخير!"

انفضّت الزيارة، فأسرعت الزوجة إلى الزوج تعاتبه على سلوكه، تخبره عن أسئلة الرجل غير الطريفة، ونظراته المشبوهة، لكن الزوج

لم يستنكر على رئيسه ذلك قائلاً: "لا بأس في ذلك!"

وتكرّرت مثل تلك الزيارات، فقد أصبح الزوج يجلب رئيسه إلى منزله يومياً تقريباً بعد العشاء، ويقضي الثلاثة سهرتهم معاً بين الحديث والشراب، كذلك تكرّر ترك الرجل لزوجته مع رئيسه وحدهما، غير ذلك كان الزوج يطلب منها أن ترتدي يومياً أحلى الثياب وتظهر في أزهى حلّة!

ومضت الأيام والأسابيع، وصار الرئيس يزور المنزل في أي وقت يشاء، بوجود الزوج أو في غيابه، يقضي وقته مع زوجة مرؤوسه، يداعبها بالحديث ويسعدها بالهدايا، فلقد تقبلت الزوجة رئيس زوجها في منزلها بناء على رغبة زوجها، وقبلت سكره وهذيه، نظراته وكلماته، خاصة وأن كل شيء يحصل أمام زوجها وهو موافق وسعيد به!!

تطورت علاقة الرئيس بمرؤوسه وزوجته، فأصبحا من المقرّبين له، يأكل معهما ويسهر معهما حتى وصلت الدرجة به لأن ينام في منزلهما.. ومضت شهور طويلة على ذلك، قرر الرئيس فيها منح مرؤوسه المنصب الذي طالما حلم به، والذي كان يستحيل أن يصل إليه قبل خمس سنوات على الأقل من ذلك الوقت، فسعد الرجل أيّما سعادة وهو يشاهد حلمه يتحقق، ونفسه تصل إلى ما تصبو إليه.

تمركز الرجل في المنصب الجديد وبدأ يمارس صلاحيته، سعيد لنجاحه ممتن لجهوده التي أثمرت، وخططه التي سارت كما يريد.. لكن الوقت أثبت له عكس ذلك.

هو يحب زوجته بالتأكيد، لا شك لديه في ذلك، صحيح أن ما بدر منه يثبت عكس ذلك، ألا أنه هكذا، لا شيء يتوقف أمام طموحه، حتى أغلى ما لديه، زوجته.. فهو يحبها كثيراً.. أكد ذلك كثيرا.. فهو يفعل كل ذلك لهما معاً ليبنيا مستقبلاً مشرقاً سعيدا، يستطيع من خلاله تحقيق كل ما يريده لنفسه ولزوجته وبيته.. ألا أن طمعه جعله يستغل زوجته ليصل إلى النجاح، ومع كل ذلك لا يزال يرى بأنه لا بأس في كل ما فعل.. حتى أثبتت الأيام عكس ذلك..

بدأ الزوج يتغير، الآن وبعدما وصل إلى مراده، بدأ يرى الأمور أوضح إذ لم يعد قناع الطمع يعميه، فهو الآن يرى رئيسه رجلاً يداعب زوجته بانفتاح شديد، ينظر إليها بنظرات حيوانية، يهديها الهدايا أمامه وهي سعيدة بها، تشكره عليها بحرارة! الاثنان يتبادلان الحديث بحرية وبلا تكلّف، حتى أن وجوده بينهما ليس مهماً، فهما وحدهما يستأنسان بالمجلس!!

كلّم زوجته، أعلمها أن ما يجري لم يعد يناسبه، هو لم يعد يريد الرئيس في منزله، فهو منزلهما وحدهما فقط، لهما أن يمارسا حياتهما فيه بحرية، لا يرتبط بجلوسهما وحديثهما وأكلهما بوجود شخص غريب، فهو يريد أن تعود له حياته الطبيعية كما كانت، يجلس، ينام، يأكل دون انتظار أحد يدخل أو يخرج، يريد محادثة زوجته وحده، لا يسمع حديثهما أحد، لكن هذا الرئيس لا يغادر المنزل حتى عاد إليه ليرى زوجته.

أراد منها أن تتوقف عن التزّين عند زيارة الرئيس، بل طلب منها

أن لا تجالسه، بل قرر أن يغيّر المنزل إلى مكان آخر لا يأتي إليه الرئيس السكير، لكن زوجته أبت، بل أبت بقوة، قائلة: "لا أريد تغيير المنزل، بل لا أريدك أن تمنعه من زيارتنا، فهو الآن حبيبي!!"

ولم تتردّد من الاقتراح على الزوج بأن يبحث عن بيت آخر إن لم يعجبه الوضع ويرحل إليه وحده!!

# عذاب الجريمة

لقد خشيت إعلامها بالأمر فقط لأنها سمعت بكاء الطفلة..
فكيف سأعلمها اليوم بعد أن عاشت معها هذه السنين؟!

كانت الأمطار تتساقط بهدوء.. معلنة بداية برد الشتاء ونهاية جفاف الصيف.. تزيل رطوبة شبّعتها الحرارة في الجو لشهور طويلة.. فتظهر نفحات من الهواء بادرة رطبة.. ها قد ملأ بخار الماء الجو..

في تلك الليلة.. عندما كنت أشاهد منظر الناس في خارج المنزل من شرفة الصالة، أراهم يتحدثون فتظهر الأدخنة من أفواههم واضحة تحت نور مصابيح المساء.. دخلت عليّ زوجتي الصالة لتعلمني بأنها حامل..

كانت سعادة الخبر لا تقارن بسعادة الأرض كلها.. فبعد سنوات طويلة من الألم والعذاب.. الانتظار والدعاء.. جاء الفرج من بعد الكربة.. ستة سنوات ونحن من طبيب لآخر.. من علاج لآخر.. فقد زرنا الكثير من الأطباء، من البلاد وخارجها.. والكل يؤكد أننا بخير.. فأنا وزوجتي قادرين على الإنجاب.. سليمان مئة بالمئة، ولكن لماذا كل هذه السنين ولا نبأ حمل واحدا! تلك كانت مشيئة الله..

تعذبنا كثيرا.. كل واحد منا يخفّف عن الآخر.. يسلّيه مدّعيا عدم الرغبة في الابناء.. وكلانا كان يحترق شوقا وألما.. خاصة زوجتي.. أما أمي وأخواتي فكن قد بدأن يحملن لها الحقد.. فالكل يريد لي ابنا يحمل اسمي واسم العائلة.. فأنا بكر عائلتي ورجلها الوحيد بعد أبي.. لذلك كانوا يسألونني الزواج من أخرى للحصول على الابناء.. لكني لم أفكر بذلك الزواج.. أحب زوجتي ولا أقوى

علـى جرحهـا.. سـأنجب منهـا أو لـن انجـب.. لا يهـم.. فـألم جرحهـا عندي أعظم بكثير من سعادة الحصول على ابن..

ساءت حـالي مـع أسرتي، فغادرنـا للعيش فـي شقة وحدنا حتـى لا تتعرض زوجتي للمضايقة من أهلي.. وأنا للعتاب المستمر.. وبعد كل ذلك الصبر حملت زوجتي أخيرا بمشيئة الله..

وصلت إلـى شهرها التاسع ونحن بين قلق وسعادة.. خوف ولذة.. وأخيـرا سـيملأ الـدار علينـا طفـل.. أخيـرا سنسـتقر ونبنـي مسـتقبلا مضـمونا مـن الطمأنينـة والسكون اللـذين افتقدناهما بسبب الحرمـان.. وكانـت زوجتـي الأكثـر سـعادة وسـط كـل شـيء.. ودون كـل شـيء.. ستصـبح امـا.. سـتنجب وريثـا.. ستكسـبني للأبـد دون خـوف.. فهـي ستعطيني مـا حسب الجميـع إنهـا غير قـادرة علـى إعطائـه.. لـن يتكلم أحد عليهـا بعد اليـوم.. الآن لا معوقـات.. والسـعادة مضـمونة.. هكذا كانت الأحلام والآمال.. حتى دخلنا المستشفى انتظارا لموعد الولادة..

لـم يكـن حمـل زوجتـي سـهلا.. كانـت ضـعيفة جدا.. لزمـت الفـراش لأسـابيع عـدة طـوال فتـرة الحمـل خوفـا مـن أن ينـزل الجنـين.. حتـى عنـدما جـاء موعـد الوضـع وتـأخر الجنـين عـن القـدوم.. نامـت فـي المستشـفى لثلاثـة أيـام حتـى يجـيء الموعـد وهـي مطمئنـة لقـرب الممرضـات.. وفـي اليـوم الثالـث.. بـدت عليهـا أعـراض الوضـع وأنـا معها.. بدأت آلامه معلنة قدوم الضيف الذي طال انتظاره..

أُخِذَت إلى غرفة الولادة.. كنت خلف الباب أسمعها.. كانت تصرخ بقـوة.. كـادت أن تمـوت.. هكـذا شـعرت بـل شـعر الجميـع.. كانـت

ضعيفة جداً.. كانت تصرخ.. لكن باسمي أنا.. كم نحب بعضنا بجنون.. عند الفرح أو عند الألم نحن مع بعضنا ولبعضنا.. فقد تزوجنا عن قصة حب طويلة.. حيث عرفتها أيام المدرسة.. كنّا نتلاقى في الشارع الذي يجمع مسار مدرستها مع مسار مدرستي لنتبادل النظرات حتى نهايته.. فتذهب يمينا وأنا يسارا..

زاد عليها الألم.. طلبت الدخول إلى الغرفة.. رجوتهم إسقاط الجنين.. لا أريده.. زوجتي أهم.. أريدها هي.. أحبها.. هي رغبتي في الحياة.. بل هي الحياة نفسها.. استطيع الحياة دون طفل.. لكني لا أستطيع الحياة دونها.. لكنها أرادت الطفل.. وبدأت تصرخ.. لا .. أنا أريده.. أريد الطفل أرجوكم.. ثم رقدت مطمئنة بعد سماع بكاء الطفل.. لقد وضعته أخيرا..

كانت طفلة في غاية الجمال.. تشبه أمها.. وضعتها أمها وأغمضت عينها من شدة الألم لتستريح.. أما أنا فحملت الطفلة لأرى عينيها.. كانت عيناها كعيني أمها.. واسعة جميلة.. حملتها لبعض الثوان.. لكن الممرضات أخذنها بسرعة لأنها لم تكن بصحة جيدة.. كانت عملية الوضع متعبة طويلة أكثر من الوقت اللازم لوضع طفل..

رقدت زوجتي لساعات عديدة.. فصحتها لم تكن جيدة هي الأخرى.. وكأنه تعب النصر بعد حرب سنين مع الزمن..

تأخر الوقت.. بقيتُ في المستشفى لأمسي مطمئنا على زوجتي ومعها.. وفي تلك الساعات التي ترقد فيها زوجتي باطمئنان بعد

سماعها لصوت الطفل.. دخلت الممرضة الغرفة لتخبرني "لقد ماتت الطفلة!" جاءت لساعات معدودة لا تزيد على الثلاث.. لتذهب من جديد إلى الأبد.. ولنبدأ عهدا جديدا من الألم والضياع.. لكن هذه المرة ألم أكبر.. ليس ألم الحرمان بل ألم الفقدان..

لن أصف شعوري وقتها.. لأن المهم هو شعور زوجتي.. كانت نائمة مطمئنة.. كيف سأخبرها بعد أن تنهض بأن السعادة ماتت بعد مولدها بقليل؟ كيف أعلمها بأن بعد كل ألم السنين تلك هناك المزيد من الألم؟ كيف ستتحملين الصدمة يا حبيبتي.. هذا ما كنت أفكر به..

بدأت بالبكاء.. بكيت كثيرا.. لكن بهدوء كي لا تستيقظ زوجتي.. فهي مستريحة في نومها.. كم أحبها هكذا وهي نائمة.. فمذ أن تزوجتها عشقتها هكذا نائمة.. فعندما كنت أصحو أحيانا من نومي وهي مني قريبة نائمة.. كنت أمسح على شعرها واتأملها وهي نائمة.. فأشعر بأن روحي بقربي وليست بداخلي..

وفي ساعات معدودة قرّرت أن أبعد عنها ألم العذاب.. لن اتركها تتألم مرة أخرى.. يكفي كل ذلك العذاب الذي عاشته.. فلا هي ولا أنا نستحق كل هذا الألم..

اتفقت مع ممرضة رشوتها ووعدتها بمبلغ عظيم من المال.. فجلبت لي طفلة من الغرف المجاورة ولدت للتو.. أمها في غيبوبة منذ يومين بسبب ارتفاع السكر.. ولدتها وهي غافلة.. ولدتها سليمة معافاة.. لم يكن بقربها أحد من أهلها.. فاستبدلت الممرضة طفلتها

بطفلتي بسهولة.. وأعطتني طفلة تغمرها الحياة..

كانت جميلة جدا.. ملأت حياتنا بالسعادة.. لم نشعر بالألم من بعدها لفترة طويلة لأننا معها نسينا معنى الألم.. فكلمتا ماما وبابا تلك اللتان كانتا تظهران من فمها كما تغاريد عصافير الصباح.. أضحت أملاً ونورا وارتياحا.. بعد استلام الطفلة كنا قد غادرنا المستشفى في صباح اليوم الثاني.. فلم أعرف ما جرى مع المرأة التي أخذت طفلتها.. إذ كانت لا تزال في غيبوبتها..

بلغت الصغيرة من العمر ما يقارب الخمس سنوات.. وأصبحت ملامحها واضحة.. فهي لا تشبه أياً منا بتاتا.. كانت شقراء.. بعيون عسلية فاتحة.. وبشرة في غاية البياض والاحمرار.. فيبدو من الواضح عليها أن أمها قد تكون شامية الأصل.. لكن زوجتي كانت تردّد "سبحان الله الذي حرمنا ومن ثم أعطانا قمرا"

في الشهور الأولى للصغيرة.. كنت أشعر أحيانا بالذنب على ما اقترفته.. لكن ذلك الشعور لم يدم طويلا.. فسرعان ما أنستني سعادة زوجتي وراحتي بسعادتها كل شيء.. فطوال هذه السنين قليلا ما كنت أتذكر بأنها ليست ابنتنا.. فقد أحببتها كثيرا حتى نسيت أنها ليست مني...

وجاء يوم كنت فيه في زيارة لصديق لي يعمل طبيبا في مستشفى حكومية.. وبينما أنا في طريقي إلى مكتبه لفتت انتباهي امرأة تصرخ في بهو المستشفى ويحيط بها ثلاث من الممرضات.. بدا لي أنها مجنونة.. لكنها سرعان ما وقعت على الأرض متشنجة يرتعد جسدها

بقوة وهي تهذي وتخرج بعض اللعاب من فمها.. مشيت من ذلك المكان.. شعرت بالقشعريرة والأسى.. يبدو أنها مصابة بالصرع والعياذ بالله..

وبينما أنا في طريقي.. التقيت صديقي في الممر حيث رحّب بي وسألني الدخول إلى مكتبه.. وقبل أي شيء شدّني الفضول لسؤاله عن تلك المرأة.. فقال "إنها مصابة بالصرع وكثيرا ما تأتيها نوبات من الجنون تصبح فيها هكذا.. فهي تتردّد على المستشفى كثيرا منذ سنين.. عرفت بأنها وضعت طفلة ميتة قبل سنوات عدة.. فاتّهمها زوجها بالإهمال والتقصير.. فعلى ما يبدو كانت تتعاطى الكثير من العقاقير.. مما جعلها في غيبوبة قبل الوضع وبعده.. فأثّر ذلك على تنفس الطفلة فجاءت بها ميتة.. طلقها زوجها بعد ذلك فلم تتحمل فقدان الزوج والطفلة.. فأصابها الجنون"

دخل كلام الطبيب إلى رأسي بقوة.. فبدأت أتخيّل المرأة.. كانت نحيلة شقراء.. بيضاء محمرة.. ومن نبرة صوتها بدت تتكلم لغة شامية.. لا أدري لماذا بدأت بعض الأفكار الغريبة تتردّد إلى مخيلتي..

خرجت من عند الطبيب مسرعا بعدما تمكنت من معرفة اسمها الكامل وعمرها وتاريخ دخولها الأول إلى المستشفى.. توجهت فورا إلى مستشفى الولادة.. حيث وضعت زوجتي طفلتها الميتة.. تحدثت إلى الممرضة التي ساعدتني على الجريمة التي أرتكبتها حيث وجدتها هناك بسهولة.. مع أن علاقتي بها انقطعت منذ ذلك اليوم الذي

غادرت فيه المستشفى.. ألا أني أتذكرها تماما.. وكيف لا وهي من ساعدني على الحصول على سعادة منزلي..

سألت الممرضة تقليب ذاكراتها إلى قبل خمس سنوات لتتذكر الطفلة والمرأة وزوجتي.. فأجابتني قائلة: اتفقنا على نسيان ذلك.. فأنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني.. فأجبتها: فقط لبعض الوقت.. أريد معرفة اسم المرأة تلك بأية طريقة وبأي ثمن..

بعد يومين من ذلك.. تلقيت اتصالات من الممرضة لتعلمني باسم المريضة الذي بدا مطابقا تماما للاسم الذي حصلت عليه من مستشفى الأمراض النفسية لتلك المرأة التي رأيتها..

تلقيت الخبر كالصاعقة.. معقول.. بعد كل تلك السنوات تظهر المرأة لتريني بشاعة ما ارتكبته.. فمن أجل سعادة زوجتي قضيت على حياة امرأة.. شتّت أسرة بكاملها.. حرمتهم جميعهم السعادة.. لأكسب نفسي شيئا جميلاً أردته لحياتي.. كي لا أرى الألم على زوجتي..

والآن أنا في حيرة! كيف أصلح الوضع بعد كل هذا التغير؟! كيف ستقبل زوجتي الوضع اليوم؟! لقد خشيت اعلامها بالأمر فقط لأنها سمعت بكاء الطفلة.. فكيف سأعلمها اليوم بعد أن عاشت معها هذه السنين؟! وهذه المرأة المسكينة هل سيعود لها زوجها؟! هل تعوضها السعادة اليوم شقاء كل تلك السنين؟! وطفلتي الجميلة.. هل ستغفر لي ما فعلته بحياتها ومستقبلها.. وأنا أين سأكون من العدالة؟!! لا أدري كيف سأعالج الأمر.. ولا أدري أن كانت لدي الشجاعة الكافية

لأعالجه!

# المحتويات


| | | |
|---|---|---|
| آخر نصف ساعة! | ..... | 11 |
| عقد الحياة | ..... | 19 |
| أسعد فتاة في العالم | ..... | 27 |
| عندما تنعدم الأخلاق | ..... | 35 |
| حادث.. وحادث | ..... | 45 |
| المشعوذه.. | ..... | 53 |
| طير من الجنة | ..... | 63 |
| خيمة رمضانية! | ..... | 71 |
| لماذا يا امرأة؟! | ..... | 79 |
| اقتلوه.. فأنا لا أريده!! | ..... | 93 |
| مملكة النحل | ..... | 101 |
| الحصاد المر | ..... | 109 |
| الموج الجارف | ..... | 117 |
| أنا رومانسية..! | ..... | 125 |

ثلاثون عاما.. وأنا غافل! ..... 135
ذكرى أمينة ..... 141
إذا بلغ الجهل ذروته! ..... 153
لعبة الفراغ ..... 161
خبّروني من المذنب؟ ..... 169
أسرار وسموم ..... 177
الحضن الغادر ..... 187
الفستان المشؤوم ..... 197
سجين الماضي ..... 205
بعد فوات الأوان ..... 219
عذاب الجريمة ..... 227